تأثير علم الصرف في الدرس اللساني المعاصر

د/ إسماعيل زغودة

جامعة حسيبة بن بوعلي-بالشلف (الجزائر)

ملخص البحث:

يعد علم الصرف من العلوم اللغوية التي عرفها العرب قديما وحديثا، كما نبه إليها الغرب من خلال بحوثهم اللسانية وخاصة في الدروس التي ألقاها فردينا ندي سوسير، ولما كان الأمر كذلك أردنا في هذه الورقة البحثية الكشف عن أهمية علم الصرف فيالدرس اللساني المعاصر مبرزين الأهمية التي يتميز بها هذا العلم في تشكيل المستويات اللسانية، وتعالقه بها كالصوتيات والنحو والدلالة.

الكلمات المفتاحية: علم الصرف، اللسانيات، علم النحو، علم الأصوات، علم الدلالة.

Abstract :

As a matter of fact, morphology is one of the linguistic fields that Arabs, whether in their past or present, have always been interested in as it has been proved by Western Linguists like Ferdinand De Saussure through their linguistic researches. Accordingly, through this paper, the researcher aims to reveal the importance of morphology in the modern linguistic lesson. Further, it is also hoped that this paper sheds light on the role of morphology in establishing the linguistic levels and its relation to other disciplines like Phonetics, Syntax, and Semantics.

***Keywords**: Morphology, Linguistics, Syntax, Phonetics, Semantics.*

مفهوم علم الصرف:

- **لغة** : جاء في مادة (ص ر ف)، على أن الصرف بمعنى "رد الشيء عن وجهه، صرفه يصرفه صرفا فانصرف، وصارف نفسه عن الشيء: صرفها عنه... وصرفت الرجل عن فانصرف، والمنصَرَف قد يكون مكانا أو مصدرا، قال يونس: الصرف الحيلة، وصرفت الصبيان: قلبتهم، وصرف الله عنك الأذى، واستصرفت الله المكاره، والصريف: اللبن الذي ينصرف به عن الضرع حارا، والصرفان: الليل والنهار... والصرف: التقلب والحيلة، والصرف: التطوع والعدل"[1].

وقد وردت كلمة (صرف) في القرآن الكريم بمعان مختلفة ومنها ما جاء في سورة الإسراء، قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾[2].وجاء كلمة صرفنا هنا بمعنى بينا[3]. كما وردت نفس اللفظة في قوله تعالى في سورة طه ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾[4]، وجاءت هنا بمعنى كررنا[5].

إن مادة (صرف) تتخذ عدة معان لغوية بحسب توظيفها في السياق، غير أن المعنى الغالب والذي أورده العديد من المصنفين وخاصة في حقل علم الصرف هو التحويل من حالة إلى حالة أخرى، فجاء في كتاب تهذيب التوضيح " الصرف والتصريف في اللغة التغيير"[6].

-**اصطلاحا**: من العسير جدا تحديد معنى الصرف في الاصطلاح كون أن هذا العلم قديم النشأة، حيث يعود الفضل في ظهوره إلى معاذ بن مسلم الهراء الكوفي الذي توفي سنة 187هـ، فتغيرت دراسته من خلال اقترانه ببعض العلوم الحديثة ؛كاللسانيات(Linguistique)، والسيميولوجيا(Simiologie)، وعلم الدلالة (Sémantique)، والنقد الأدبي.

فلا يمكننا أن نجد تعريفا جامعا مانعا لعلم الصرف، وذلك لاتصاله بالعلوم اللغوية القديمة من نحو وبلاغة وعروض، والعلوم اللسانية الحديثة من لسانيات وسيميولوجيا وصوتيات، كما أن مجاله يتسع ليشمل النقد الأدبي – لأن المدارس اللسانية الحديثة تتصف بالطابع اللغوي والنقدي–، بيد أننا نجد بعض الاجتهادات من الدارسين العرب القدماء فجاء في شافية ابن الحاجب "التصريف علم بأصول تعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب"[7].

يشير هذا المفهوم إلى أن الصرف أو التصريف هو علم من علوم اللغة، له أسس وضوابط لا يحيد عنها الدارس، "فقولنا علم أي قواعد وأصول تعرف منها أحكام جزئيات موضوعها والأبنية جمع بناء وهو الكلمة الملحوظة بحروفها مراعى فيها الأصالة والزيادة والترتيب والشكل معدا الحرف الأخير"[8].

أما ابن جني فيعرف علم الصرف بقوله : "معنى قولنا التصريف هو أن تأتي إلى الحروف الأصول (وسنوضح قولنا الأصول) فتتصرف فيها بزيادة حرف أو تحريف بضرب من ضروب التغيير، فذلك هو التصرف فيها والتصرف لها"[9].

ويعرف عبد الله محمد النقران الصرف أو التصريف بأنه "تحويل الأصل إلى أمثلة مختلفة لمعان مقصودة، لا تحصل إلا بها، كاسمي الفاعل والمفعول واسم التفضيل والتثنية والجمع، إلى غير ذلك"[10].

وأضاف المحدثون المفهوم العملي لعلم الصرف، ففي نظرهم هوتحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعان مقصودة لا تحصل إلا بها، كتحويل الفهم إلى فهم ويفهم وأفهم و فاهم ومفهوم ونحو ذلك، وكذلك التثنية والجمع وأشباه ذلك[11].

قد تتغير نظرة الدارسين إلى علم الصرف من فترة إلى أخرى ومن بيئة إلى بيئة أخرى، بحسب التطور الحاصل فيها، فيمككننا النظر إلى هذا العلم من الوجهة اللسانية، كما يتيح لنا النقد الأدبي فرصة القراءة من الناحية الصرفية.

مجال علم الصرف : يقتصر التصريف في اللغة العربية على نوعين من الكلام :

- الأفعال المتصرفة .
- الأسماء المتمكنة .

وما عدا ذلك من أنواع الكلام لا يدخل في مجال علم الصرف؛ وذلك كالحروف ، والأسماء المبنية مثل " إذا ، وأين ، وحيث " ، والضمائر مثل " أنا ، وأنت ونحن " ، وأسماء الإشارة كـ " هذا وهذه " ، وأسماء الموصول كـ " الذي والتي ، وأسماء الشرط كـ " من وما ومهما " ، وأسماء الاستفهام كـ"من وما ومتى " ، والأسماء المشابهة للحرف مثل " كم " ، و " إذ " ،والأسماء الأعجمية كـ"إبراهيم وبشار وإسماعيل " ، والأفعال الجامدة كـ " نعم وبئس وعسى " ، وما كان من الأسماء ، أو الأفعال على حرف ، أو حرفين ، إلا ما كان مجزوما منه ، لأن أقل ما تبنى عليه الأسماء المتمكنة، أو الأفعال المتصرفة ثلاثة أحرف[12].

يتفق علماء الصرف على أن الحروف والأفعال غير المتصرفة والأسماء غير المتمكنة ليست من اهتمام هذا العلم، فالحرف مثلا لا يوزن في كلام العرب لأن الهدف من الوزن هو "أن يعرف الأصلي من الزائد، والحروف لا يعرف لها اشتقاق ولا أصل أخذت منه فترد إليه، فلأجل لهذا لم توزن"[13].

فموضوع علم الصرف أو التصريف هو الألفاظ العربية من حيث بنيتها كالصحة والإعلال والأصالة والزيادة ونحوها.

الميزان الصرفي: هو مقياس جاء به علماء الصرف لمعرفة أحوال أبنية الكلمة ، ولما تبين بالبحث والاستقصاء أن أكثر الكلمات العربية ثلاثية الأحرف(وتثبت هذا الكلام المعاجم العربية القديمة)، فإنهم جعلوا الميزان الصرفي مركبا من ثلاثة أحرف أصلية هي : الفاء ، والعين ، واللام " ف، ع، ل " وجعلوه مقابل الكلمة المراد وزنها ، فالفاء تقابل الحرف الأول ، والعين تقابل الحرف الثاني ، واللام تقابل الحرف الثالث ، على أن يكون شكل الميزان مطابقا تماما لشكل الكلمة الموزونة من حيث الحركات والسكنات .

وقد اختار الصرفيون كلمة " فَعَلَ " لتكون ميزانا صرفيا لأسباب نجملها في الآتي:[14]

1 . لأن كلمة " فعل " ثلاثية الأحرف ، ومعظم ألفاظ اللغة العربية مكونة من أصول ثلاثة ، أما مازاد على الثلاثة فهو قليل وهذا ما أكده الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه العين حين قدم الثلاثي عن بقية الأوزان الأخرى شأنه شأن جل المعاجم القديمة .

2 . أن كلمة " فعل " عامة الدلالة ، فكل الأفعال تدل على فِعْل ، فالفعل : أكل ، وجلس ، ومشى ، ووقف ، وضرب ، وقتل ، ونام ، وقام ، وغيرها تدل على الحدث بمعنى فعْل الشيء .

3 . صحة حروفها ، فليس فيها حرف يتعرض للحذف ، كالأفعال التي أصولها أحرف علة كالألف ، والواو ، والياء ، فالأفعال المعتلة قد تتعرض للإعلال بقلب ، أو نقل ، أو حذف .

4 . أن كلمة " فعل " تشتمل على ثلاثة أصوات تشكل أجزاء الجهاز النطقي ، فهي تضم الفاء ومخرجها من أول الجهاز النطقي وهو الشفتين ، والعين من آخره أي من أخر الحلق ، واللام من وسطه .

يقتصر الميزان الصرفي على الأسماء والأفعال، لأننا نعرف اشتقاقها وأصولها والزيادة عليهما، وعلة إبعاد العرب الحرف من الميزان الصرفي هو الهدف المقصود من ورائه، وهو أن يعرفالأصلي من الزائد[15].

وللميزان الصرفي فائدة كبرى ، فهو الذي يحدد صفات الكلمات ، ويبين إن كانت الكلمة مجردة ، أو مزيدة ، أو كانت تامة ، أو ناقصة ، وباختصار فهو يبين لنا : حركات الكلمة، وسكناتها ، والأصول منها ، والزوائد ، وتقديم حروفها ، وتأخيرها ، وما ذكر من تلك الحروف، وما حذف ، ويبين صحتها ، وإعلالها، كما أنه يساعد على رد الكلمة إلى أصلها الحقيقي، إضافة إلى ذلك يبين مواطن الزلل والنقص في الكلام .

تأثير علم الصرف في الدرس اللساني المعاصر: لعب علم الصرف دورا بارزا في إرساء القواعد اللسانية والنقدية التي تضمنتها الدراسات العربية القديمة (العلم الذي يدرس أواخر الكلمة)، وحتى الدراسات الغربية الحديثة، فقد درسه العرب على أنه علم تضبط بواسطته الكلمة، بينما درسه الغرب على أنه ضرب من ضروب الدراسة اللسانية(وهذا ما توصل إليه اللسانياتي السويسري دو سوسير.

فمصطلح "علم الصرف" بالعربية يقابله مصطلح " Morphologie" بالفرنسية، ومنه جاء مصطلح "Morphème" الذي يقابله باللغة العربية "مورفيم" أو "صرفيم"، وربما المصطلح الثاني يظهر فيه الصرف جليا كون أن المادة اللغوية المراد دراستها موجودة في جذر الكلمة.

لقد أفادت اللسانيات(Linguistique) علم الصرف، كما أنها استفادت منه. وذلك من خلال دراسة اللغة (langue) من الناحية الصرفية. فمصطلح "مورفيم" لساني بحت، بيد أنه ذو طبيعة صرفية "جاء هذا المصطلح معرفا ضمن إطار النظريات البنيوية. إذ يشير إلى تلك الوحدات الدنيا في اللسان؛ المتضمنة لشقي الدال والمدلول معا (Signe). وذلك في مقابل الفونيم (الذي يمثل وحدة دنيا على صعيد الشكل؛ وحدة تخلو من أي معنى) من جهة، والخصائص الدلالية أو السيمات (الوحدات الدنيا على صعيد المعنى؛ لا تخضع لأي شكل) من جهة أخرى"[16].

إذا تأملنا الدرس اللساني المعاصر وجدناه لا يخلو من الدراسة الصرفية، التي جعل منها دو سوسير من المستويات التي يرتكز عليها اللسانياتي أثناء تعامله مع الظاهرة اللغوية، وتتمثل هذه المستويات فيما يلي:

- المستوى الصوتي: ويدرس الصوت أو الحرف.
- المستوى الصرفي: ويدرس بناء الكلمة أو المفردة.
- المستوى النحوي: ويهتم بدراسة التركيب أو الجملة.
- المستوى الدلالي: ويهتم بدراسة المعنى.

وقد اهتم أندري مارتيني(Andry Martini) بالقضايا الصرفية من خلال مدرسته الوظيفية، فعمد إلى دراسة وظائف الأصوات (Fonction des phonèmes)، فالصوت اللغوي يختلف من الناحية الموسيقية والوظيفية عن بقية الأصوات الأخرى، فصوت القاف يختلف عن صوت الكاف عن صوت اللام نطقاً ووظيفةً.

وللبناء دور بارز في تحديد وظيفة الكلمة داخل الجملة، ولهذا اعتمد أندري مارتيني(Andry Martini) على ما يعرف بالتقطيع المزدوج La double articulation) (، وفيه ميز بين وظيفة الوحدات اللفظية الدالة وبين وظيفة الأصوات اللغوية غير الدالة، وفي الأولى يمكن القول أن أهمية علم الصرف تلعب دورا بارزا، كونها تهتم ببناء الكلمة ومدى التغيير الذي يطرأ عليه كقولنا مثلا: كتبتُ من فعلتُ وكتبتَ من فعلتَ وكتبت، فعندما يتغير وزن الكلمة فحتما سيتغير معناها، وتظهر اللفظة الأولى في اختلاف جلي عن الثانية وعن جميع المفردات التي تنتمي إلى نفس الأصل اللغوي، ولكن تختلف في الحركة الإعرابية أو الوزن.

فالتقطيع المزدوج كمصطلح لساني معاصر نجد مزاياه اللغوية موجودة في علم الصرف العربي ويتمثل ذلك في الحركات الإعرابية من ضمة وفتحة وكسرة، إضافة إلى ذلك أن الفعل الأجوف يتغير معناه تلقائيا بمجرد تغيير أحد أصواته ومثال ذلك: طار ، غار، جار، دار....

فالبناء في علم الصرف يلعب دورا أساسيا، ولهذا السبب راحت اللسانيات المعاصرة تهتم به أيما اهتمام، وقد مثلت لنا الباحثة شفيقة العلوي من خلال مؤلفها " محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة " بمثال فيه اختلاف في البناء، واستنتجت أن " الملاحظة السريعة لهذه المدونة . على المستوى الإفرادي . تظهر أن ثلاث وحدات لسانية مختلفة من حيث البناء. وإن هذا التقابل هو الذي يعكس الفوارق الدلالية بينها مما يؤكد أن لكل كلمة وظيفة داخل التركيب"[17].

ما نخلص إليه، هو أن هناك علاقة وطيدة بين اللسانيات(Linguistique) و علم الصرف (Morphologie) خاصة وأن الدراسة اللسانية تهتم بالصوت الذي يمثله الحرف، وبالكلمة التي يمثلها علم الصرف، وبالتالي، وتبعا للمفاهيم السابقة فإن علم الصرف يعد " فرعا من النظرية اللسانية؛ وهي تعنى بدراسة أشكال الكلمات وانتظامها"[18].

ولا تقتصر أهمية علم الصرف في علاقته باللسانيات فحسب، بل تتعدى ذلك إلى مختلف الدراسات اللغوية و الأدبية، كالنقد الأدبي مثلا الذي استفاد من القواعد الصرفية، وأسس منهجه بالاعتماد على ما توصل إليه علم الصرف إضافة إلى تضافره مع العلوم الأخرى، ويمكن للناقد أن يستحسن استعمال بناء مكان بناء آخر، مراعيا في ذلك محتوى النص والقواعد الصرفية المناسبة.

وإذا تأملنا النصوص النقدية المعاصر، أو تلك التي وصلتنا من خلال سير القدامى، وجدنا أن هناك العديد من النصوص التي اعتمدت على علم الصرف كأساس نقدي لها، فيمكن أن نجد استعمال جمع الذكر السالم والمراد هو جمع المؤنث السالم، أو استعمال جمع القلة والمقام يفرض استعمال جمع الكثرة، أو استعمال صيغ لأفعال غير مناسبة مثلا: هناك خرج على وزن فعل، وأخرج على وزن أفعل، واستخرج على وزن استفعل، ولكل واحد من هذه الأفعال دلالة خاصة به، حتى وإن كانوا يشتركون في الأصل الثلاثي "خرج"، ففي اللغة العربية كلما زادت الكلمة صوتا(حرفا) زادت معنى.

وإذا عدنا إلى المصنفات النقدية القديمة، وجدنا أن هناك العديد من النصوص النقدية التي اتخذت من علم الصرف مرتكزا لها، ومن ذلك ما وقع لشعر الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء تمجيده للبطولات، وفخره وافتخاره في قوله:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما[19].

فالفخر يقتضي التعالي والسمو في القول، بالأهل والنفس والنسب، وهذه الدلالات تقتضي المبالغة في الوصف، فكان عليه أن يستعمل جموع الكثرة وليس جموع القلة فبدلا من كلمة جفنات كان عليه استعمال كلمة جفون، وبدلا عن كلمة أسياف يستعمل سيوف، وبدل لفظة يقطرن يستعمل مفردة يسلن. وكل هذه الصيغ الصرفية لديها تأثير على الدلالة، وهذا ما أراد إليه عبد القاهر الجرجاني من خلال قوله: " لن يتصور أن يكون للفظة تعلق بلفظة أخرى من غير أن يعتبر حال معنى هذه مع معنى ذلك، ويراعى هناك أمر يصل إحداهما بالأخرى"[20].

وأوزان جموع القِلَّة أربعة :

الأول : **أَفْعُل** نحو : أَفْلُس وأَعْيُن وأَسْيُف وأَكْلُب ونحوها .

الثاني :**أَفْعَال** نحو : أَثْوَاب وأَعْمَال وأَحْبَاب وأَسْبَاب وهلمَّ جراً .

الثالث : فِعْلَة **نحو** :غِلْمَة وفِتْيَة وصِبْيَة وثِنْيَة وما شابهها .

الرابع : **أَفْعِلَة** نحو : أَعْمِدَة وأَطْعِمَة وأَشْرِبَة وأَسْقِيَة ونحوها .

مجمل القول هو أن علم الصرف، كان ومازال يفيد العلوم اللغوية من نحو وبلاغة وعروض ولسانيات وسيميائيات، كما أن لهذه العلوم مزية عليه، حين أرست قواعده، وجعلت منه علما قائما بذاته.

هوامش البحث:

[1]– ابن منظور : لسان العرب، مادة: صرف ، دار صادر، بيروت ط3(1994)، ص: 219.

[2]– سورة الإسراء، الآية برواية ورش.

[3]– محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، شركة الشهاب الجزائر، الجزء الثاني، ص:160.

[4]– سورة طه، الآية برواية ورش.

[5]– محمد علي الصابوني: المرجع السابق، ص: 249.

[6]– أحمد مصطفى المراغي ومحمد سالم علي: تهذيب التوضيح (قسم الصرف)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ص: 04.

[7]– أحمد بن محمد بن أبي بكر: الوافية في شرح الشافية، جامعة الملك سعود(1957)، مكتبة جامعة الرياض، قسم المخطوطات.

[8]– أحمد مصطفى المراغي ومحمد سالم علي: مرجع سابق، ص:04.

[9]– ابن جني: التصريف الملوكي، ص: 02.

– عبد الله محمد النقران: الشامل في اللغة العربية، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، ط1(2003)[10]، ص:122.

[11]– ينظر: أحمد مصطفى المراغي ومحمد سالم علي: مرجع سابق، ص:04.

[12]– ينظر: إبراهيم الشمسان، دروس في علم الصرف، ص: 08.

– عمر بن ثابت الثمانيني: شرح التصريف، تح: إبراهيم بن سليمان البعيمي، مكتبة الرشد، الرياض، ط1(1419هـ، 1999م)[13]، ص: 191.

[14]– ينظر: إبراهيم الشمسان، دروس في علم الصرف، ص: 08.

[15]– ينظر: عمر بن ثابت الثمانيني: شرح التصريف، مرجع سابق، ص:191.

– ماري نوال غاري بريور: المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، تر: عبد القادر فهيم الشيباني، الجزائر، ط1(2007)[16]، ص: 72، 73.

– شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس النقدية المعاصرة، مؤسسة أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، ط1(2004)، ص: 18[17].

[18]– ماري نوال غاري بريور: مرجع سابق، ص:75.

[19]– حسان بن ثابت الأنصاري : ديوانه، دار صادر بيروت لبنان، ص: 221.

[20]– عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة، ط5 (2004)، ص:406.